كتاب الشباب

السفينة الطائرة



قصة

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

السفينة الطائرة

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

السفينة الطائرة – الرياض

٥٦ ص، ١٤X٢١سم

ردمك: X–٠٠٠–٤٠–٩٩٦٠

١– القصص القصيرة العربية – المغرب   أ– العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٦٤   ٢٢/٢٨١٠

رقم الإيداع: ٢٢/٢٨١٠   ردمك: X–٠٠٠–٤٠–٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



سَمِعَ الفتى يونسُ الغريب صوتًا غيرَ مألوفٍ آتيًا من البحرِ. كان يجلِسُ على رأسٍ صخريٍّ ممتدٍّ داخلَ الماءِ الهادئ. وكانت الشمسُ تقتربُ من مغربِها، والماءُ في لَون حُمرَةِ الشَّفقِ. ونظَر إلى مَصْدَرِ الصوتِ فَلَمْ يستطعْ رؤيةَ شيء.

كان قد نزل من بيتِه بالمزرعةِ إلى الشاطئ الخالي لينفردَ بأفكارِه، ويجْتَرَّ الحدثَ الهائلَ الذي أخبرَته به أمُّه. كان دائمًا يسألُها، وهو طِفلٌ صغيرٌ: «أُمِّي، أينَ أبي؟ الأولادُ كلُّهم لهم آباءُ إلاَّ أنا!»

وكانت هي تقول له: «أبوكَ رجلٌ عظيمٌ. وسأحكي لك كَلَّ شيء عنه حين تحفَظُ القرآن، فتلك وصيَّتُه.»

وكان ذلك حافزًا له على حِفْظِ القرآنِ في سِنٍّ مبكِّرةٍ، وقَبْلَ جميعِ أقرانِه. واحْتَفَلَتْ به أمُّه، وأقامت له حفلَ «خَتْمَةٍ» دعتْ إليه جميعَ تلاميذ كُتَّابِه القُرآني.

* * *

وبعدَ خروجِ الضُّيوفِ، قال يونسُ لأمِّهِ: «ها أنا حفِظتُ القرآنَ، فأخبريني عن أبي.»

فأَجْلَسَتْه، وجَلَسَتْ بجانبِه، وقالتْ: «ولدي العزيزُ، أبوكَ "سيدي عُمَرُ المبارَك"، وهذا اسمُه الحقيقيُّ، وليس الغريبَ. «الغريبُ» اسمٌ اتَّخذْناه بديلاً لتضليلِ الأعداءِ، ولأنه يُعبِّرُ عن حالِنا في مَنْفانا هذا البعيدِ عن بلدِنا الحقيقي... أبوكَ كان قائدًا شُجاعًا وكبيرًا في جيشِ السلطانِ «محمد الغالب». وكان من أُسرةٍ شريفةٍ وعريقةٍ، ورِثتْ خدمةَ السلاطينِ أبًا عن جَدٍّ. وكان قائدٌ آخرُ أدنَى منه رُتبةً وأقلُّ قُربًا من السلطانِ، يُدعَى «مرهوبًا الدَّفَانَ»، يَحْسُدُه على شَرفِ مَحْتِدِهِ وقُربِه من السلطانِ، ويَتربَّصُ به الدَّوائرَ.

وذاتَ ليلةٍ، والسلطانُ يحتفِلُ بعيدِ الأضحىَ بقصرِه بين أعيانِ مملكتِه، في قاعةِ الحفلاتِ المعطَّرةِ بالنِّد والعودِ القُماريِّ، والمزيَّنةِ بالزُّهورِ، والمضاءةِ بالثريَّاتِ والشَّمْعَدانات، إذ دخلَ عليهم جُنودٌ مُدَجَّجون بالسِّلاحِ، فقَتَلوا من قَتَلوا وجَرحوا من جَرَحوا من الحاضرين.

واقتحمَ القاعةَ، فارسٌ على فَرَسٍ أسودَ ضخمٍ هائجٍ، وفي يدِه سيفٌ، وقصَدَ السلطانَ لقَتْلِه! وفي نفسِ اللحظةِ خَرَجَ من

خلفَ السلطانِ القائد «مرهوب الدَّفانُ»، فارتَمَى على السلطانِ، وضَمَّه إلى صَدرِه، وتدحرَجَ به جانبًا بسرعةٍ عظيمةٍ، فوقع السيفُ على كرسيِّ السلطانِ، وشَطَرَهُ شَطْرَين!

ونجا السلطان بأعجوبةٍ من موتٍ محقَّقٍ!

وتكاثرَ الحرسُ على الفارسِ وجنودِه، فقاتلوهم حتى أخرجوهم من القصرِ، وأحاطوا بهم من كلِّ جانبٍ، فألْقَى أغلبُهم السِّلاحَ واستسْلَموا.

واعترافًا بجميلِ القائدِ «الدفان» رقَّاه السلطانُ إلى رتبةِ ضابطٍ كبير، وكلَّفه بالبحثِ عن مدبِّري المؤامرةِ وتصفيتِهم! فقبَض على جميع قُوَّادِ الجيشِ الكبارِ المخلصين للسلطانِ والمقرَّبين إليه، واتهمَهُم بتدبيرِ المؤامرةِ، وأعْدَمَهم بدونِ محاكمةٍ ولا شهودٍ. ومن بينهم كان المرحومُ أبوكَ!

وتهدَّج صوتُ «عائشةَ أُمِّ يونسَ»، وانهمَرَت دموعُها لذِكْرِ زوجِها العزيزِ الراحلِ. وتأثَّر يونسُ لبكاء أُمهِ فبكى هو الآخرُ. ومَسحتْ أمُّه دموعَها بمنديلِها الصغيرِ، واستَأنفتْ حديثَها:

كان ذلك منذُ زمنٍ بعيد . وكنتَ أنتَ صبيًّا صغيراً. ولحُسْنِ حظِّنا كنتُ ذهبتُ بك إلى دارِ جدِّك بالجبلِ، وإلاَّ كان «الدفانُ» قتلَنا جميعًا. فقد أرسلَ زبانيتَه إلى بيوتِ جميعِ الذين أعدمَهم لقَتْلِ أهلِهم جميعًا حتى لا يبْقَى من يُطالبُ بدمِهم، وللاستيلاءِ على أموالِهم وممُتلكاتِهم وحُلِيِّ نسائِهم. فقد كان قبلَ أن يدخُلَ الجيشَ مُرْتزِقًا ورئيسَ عصابةِ قُطَّاعِ طُرقٍ.

وبعد دفْنِ «الدفان» لجميعِ كبارِ رجالِ الجيشِ خَلا له الجوُّ، ولم يعُدْ ثَمَّةَ شكٌّ في أنَّهُ بَدَأَ يحيكُ مؤامرةً أخرى يقضِي فيها على السلطانِ وذُرِّيتِه، ويصبحُ هو السلطانَ!»

وحين عَلِم والدي بما حدثَ، أرسلَنِي أنا وأنتَ إلى مزرعةِ عمك هذه، وأوصاه بأن يكتُمَ سِرَّ وجودِنا، ويغيِّرَ اسمَيْنَا، خشيةَ جواسيسِ «الدفَّان...»

وتنهَّدتْ أمُّ يونسَ وقالت: وهذا سببُ وجودِنا في هذهِ البقعةِ البعيدةِ عن المدُنِ والحضارةِ؛ لذلك عليك أن تحتفظَ بهذا السِّرِ الخطيرِ لنفسِك فلو عَلِم «الدفان» بوجودِنا فلن

يَترُكَنا أحياءَ! كما أنَّ عليك أن تقرأَ جميعَ الكُتُبِ التي أرسلها إليك جدُّك، حتى تكبُر وتُصبِح عالِمًا جليلاً يُحبُّكَ الناسُ ويقصدونك من كلِّ مكانٍ.

وامتلأ قلبُ الفتى يونسُ حقداً على «مرهوبٍ الدفانِ»، قاتلِ أبيهِ، وأحس بخطرٍ غامضٍ يُهدِّدُه وبخوفٍ شديدٍ من انكشافِ سرِّه! وود لو أنه بقي جاهلاً بحقيقةِ أمرِه! واستغرَقهُ التفكيرُ فيما يجبُ عليه أن يفعلَهُ ليُفْلِتَ من قبضةِ عَدوٍّه إذا هو اكتشفَ مخبَأَهُ...

ولم ينتبهْ إلاَّ على الصوتِ الغريبِ الذي سَمِعَه في البدايةِ قادمًا من البحر. وكانت الشمسُ قد غربتْ، وانسحبتْ أشعَّتُها الملونة من فوق صفحةِ الماءِ، فاستطاعَ أن يرى مصدرَ الصَّوتِ. كان شبيهًا بنعيقِ غُرابٍ صغيرٍ. ودقَّق النظرَ، فإذا دلفينٌ من حيتانِ المنطقةِ المألوفةِ يخرُجُ من الماءِ وينظرُ إليه، ويدفعُ شيئًا أمامَه نحوَ الشاطئ. واقترب به من الصخرةِ، ففوجِئَ يونسُ بأنهُ دلفينٌ صغيرٌ فاقدُ الوعيِ، وبرأْسِهِ جرْحٌ غائرٌ يسيلُ منه الدمُ! أخذتِ الدلفينةُ تدفعُه نحوه بخَطْمِها، وتنعَقُ وكأنَّها ترجوه أن يفعلَ شيئًا من أجلِ شِبْلِها الجريحِ.

واحْتـارَ يونسُ فيـما عليـه أن يفـعلَ. وأخـيراً، وأمامَ إلْحاحِ الدلفينةِ الأمِّ الولْهَانةِ، قرَّر أن يأخُذَ الشبلَ إلى منزلِه، فنزلَ إلى الماءِ، ورفَعَه بين ذراعيـهِ في حَنانٍ، فلَمْ تُمانِعْ أمُّه. وضَمَّه إلى صدرِه، وركضَ به إلى منزله. وكان الصغيرُ الجريحُ يَئِنُّ ويتألَّمُ، فأخذَ يونسُ يُربِّتُ ظهرَه ويلاطِفُه.

وظنت أمُّ يونسَ أنه اصطادَه، ولكنْ حين أخبرَها بأمرِه، تحرَّكتْ فيها هي الأخرى عواطفُ الأمومَةِ، فأخذته منه، ووضعَتْه في جفْنةٍ، وطلبت من جميعِ الصغار أن ينزلوا بأسطُلٍ فارغةٍ إلى البحرِ، ويعودوا بها مليئةً بمائه. وجلستْ هي إلى جانبِه، فضمَّدَت الجُرحَ ببعضِ المراهِمِ والأعشابِ المسحوقةِ التي تُوقِف النَّزيفَ، ووضعتْ عليها ضمادَةً، وربطتها بخيط متين.

وعاد الصِّغارُ بالماءِ، فملؤوا عليه الجفَنةَ. وتركتْ أمُّ يونسَ أنفَ الدلفين خارجَ الماء حتى لا يغرقَ* . وأخرجت الأطفالَ وأقفلت الباب.

* من المعروف أن الدلفين من الثدييات التي تعيش في الماء، ولكنها تخرج راسها منه بصورة منتظمة لاستنشاق الهواء عبر أنف ورائتين.

وكانتِ الأبقارُ قد عادت من مراعيها، وملأَتْ ساحةَ الدارِ بالخُوار. كانت ضروعُها مليئةً باللبنِ، وهي تنظرُ إلى مَنْ حَولَها، وكأنها تطلُبُ أن تُحلَبَ! واختارتْ أُمُّ يونسَ بقرةً شابةً قويةً، فحلبتْ منها ما يملأُ رضَّاعةً، وذهبتْ بها إلى الدلْفينِ المريضِ. وأحاط بها الأطفالُ ليتفرَّجوا عليها وهي تُرضِعُه.

ولم يُقْبِل على الرَّضاعةِ في البدايةِ، فأخذت أمُّ يونسَ تُربِّتُ ظهرَه، وتُناغيهِ. ثم بَلَّلتْ أُصْبُعَها بالحليبِ، وأدخلته في فمِه فمصَّ الأُصُبعَ. وأعطتْه البزَّازةَ فأخذ يمتصُّ منها بشهيَّةٍ كبيرة حتى أفرغَ الرضَّاعةَ أمامَ فَرَحِ الصغارِ وسرورِهم العارمِ ولَمْ تتركْه حتى تجشَّأ كطفلٍ آدميٍّ رضيعٍ. وأخرجت الصغارَ وتركته يستريحُ.

ويبدو أنَّ الدواءَ والحليب فَعَلا فعلَهما في جسدِ الدلفينِ الصغيرِ، فكفَّ عنِ الأنينِ، ونام نومًا عميقًا وهو طافٍ على وجهِ الماءِ يتنفَّس بهدوءٍ.

وبعد صلاةِ الفجرِ في اليوم التالي، نزل يونسُ إلى الشاطئ ليَرى هل أُمُّ الدلفينِ هناك. وما كادَ يقف فوقَ اللسانِ

الصخريِّ حتى سَمِع صوتَها، ورأى رأسَها خارجَ الماءِ، وهي تنظرُ إليهِ، وكأنها تسألهُ:

«كيف حالُ ولدي؟»

فقال لها، وكأنه متأكِّدٌ من أنها تفهمُه: «ولدُكِ بخيرٍ! انتظري قليلاً!» وركضَ عائداً إلى البيتِ، وعاد بالدلفين الصغيرِ في قفَّةٍ، وعليه فوطةٌ مبلَّلةٌ بماء البحرِ. ويبدو أنَّ أمَّه شمَّت رائحتَه من بعيدٍ، أو سَمِعتْ صوتًا فوقَ الصوتِ البشريِّ يَصْدُرُ عنه، فأخذت تقفِزُ فوقَ الماءِ من الفرَحِ حتى خاف عليها يونسُ من كَسْرِ خَطْمِها فوقَ صخرة!

وخلع ملابسَه، ونزلَ بالدلفين إلى الماء، فاقتربت منه أمهُ، وأخذت تتمسَّح به. ثم أعطته ثدْيَها فراحَ يرضَعُ بنهمٍ كبيرٍ، وهي تنظرُ إلى يونسَ بعينَين كبيرتَين دامعتين، وكأنها تقولُ له: «شكراً!»

وحين أنهتْ الرضاعةَ واللعبَ معه دخل يونسُ بينهما، وحمَل الصغير فوقَ ذراعَيه، ووقف قليلاً ينظرُ إليها، وكأنه يستأذنِها في أخذهِ مرة أُخرى. وحين وَضَعَه في القفَّةِ وغطّاه

وحمَلَه لم يظهرْ عليها انزعاجٌ كبيرٌ. كانتْ تعرِفُ أنه في أيدٍ أمينةٍ، وأنه في حاجةٍ إلى المزيد من الراحةِ والعِلاجِ!

وتكررتِ العمليةُ أسبوعًا كاملاً، كانت خلالَه أُمُّ يونسَ تُغيِّرُ ضمَادَةَ الجرحِ، وتُضيفُ المزيدَ من الدَّواءِ. وفي آخر مرة كان الجرحُ قد اختفَى تمامًا، وعاد جلدُ الدلفين الصغيرِ إلى اللمعانِ.

وحين رأتْ أم الدلفين أن الضِّمَادَةَ اختفت ومعَها الجرحُ الغائرُ، رقَصتْ حولَه من الفرحِ، وتمسَّحت بيونسَ، ودارتْ به، ثم توجَّهتْ إلى داخلِ البحرِ، وتبِعها شبلُها. ووقف يونسُ يودِّعُها ويُلوِّح لها بيدِه، وهي ترفَعُ ذيلَها فوق الماءِ، وكأنها تلوِّح له بدورِها.

* * *

ومرَّ فصلاَ الخريفِ والشتاءِ، ودخل الربيعُ ولم يظهَرْ للدلافين أثرٌ في شاطئ القريةِ. وفكَّر يونسُ أنها قد تكونُ ذهبتْ إلى مَشْتاها بشواطئِ الصحراءِ الدافئةِ، في هِجْرَتِها الموسميةِ.

وفي يومٍ من أيامِ مـايو المشْـمِـسَـةِ النَّاعِـمـةِ نزل يونسُ للسِّبـاحـةِ. وبينمـا هو يخلَعُ ملابسَـه فـوق الصخرةِ إذ سـمِعَ صوتًا مألوفًا آتيًا من داخلِ البحرِ. ونظرَ إلى مصدرِه، فإذا رأسُ الدلفينِ خارجَ الماءِ ينظرُ إليه، وكأنه يقول له: «ها أنا عدتُ من رحلتي الشتويَّة!»

وعرفه يونسُ في الحالِ. إنه صديقَه الدلفينُ الصَّغيرُ الذي عـالجَ جُرْحَه. إلا أنه صـار أكبَرَ حجْـمًا. ولوَّحَ له يونسُ بكلتا ذراعَيه سعيداً برؤيتِه. فغَطَسَ الدلفينُ وسبحَ تحت الماءِ بسرعةٍ عظيمةٍ، ثم قفز في الهواءِ ليعبِّرَ ليونسَ عن فَرَحِه هو الآخر!

وفـوجئَ يونسُ بِرَتْلٍ من الدَّلافينِ تقـفِـزُ فـوق الماءِ صـفًّـا واحـداً، وكـأنهـا دُرِّبتْ في سِـرْكٍ بحـري. واقـتـربَ الرَّتْلُ من الصـخـرةِ، وأخـرجـوا رؤوسَـهـم ينظرون إلى يونسَ ويحـرِّكـون زَعانِفَهم فرِحين، وكأنهم يَدْعونَه إلى النزولِ إلى الماءِ.

وتردَّد قليلاً، ولكنَّ روحَ المغامرةِ تقمَّصتْهُ فقفز بينهم. واجـتـمعت عليه الدلافينُ اللعوبةُ المرِحَةُ، وأخـذت تلمـسُهُ بأخْطامِـهـا الناعـمـةِ وتدورُ حـولَه، وهـو يلمِـسُـهـا ويُكلِّـمـهـا

ويمسِكُ بأذيالِها فتجرُّه خلفَها. ويَدْخُلُ بعضُها تحت بَطْنه، ويرفعُه فوقَ الماءِ، وهو في منتهىَ النَّشْوةِ والسَّعادةِ!

* * *

وعاد إلى بيتِه في المساءِ مرهقًا جائعًا، ولكن قلبَه عامرٌ بفرحٍ عارمٍ... وتعشَّى ونام نومًا عميقًا. واستيقظ على أحلامٍ رائعةٍ وهو يسبَحُ مع دلافينه في ماءِ الخليجِ الدافئ، تحتَ سماءٍ ربيعيَّةٍ شديدةِ الزُّرقةِ.

ورأى في نومِه الدلافينَ تكلِّمُه بلسانٍ فصيحٍ وعقولٍ ذكيةٍ، وتحكي له عن حياتِها وعجائبِ البحارِ والممالكِ المجاورَةِ لها، وعن طبائعِ البشَرِ الذين يجُوبون البِحارَ، وعن قَسْوةِ القراصنةِ على المسافرين وقَسْوةِ بعضِهم على بعضٍ.

وحين استيقظَ من حُلْمِه الملوَّنِ البديعِ كاد ينزِلُ إلى البحرِ بدون فطورٍ ولكنَّ أمه أرغمتْه على أكْلِ شيءٍ حتى لا يُهلِكَهُ الجوعُ. وقام بما كلَّفته به أمه من أعمالٍ بسرعةٍ كبيرةٍ، ثم نزل ركضًا إلى البحرِ.

وفي انتظارِه كانت جوقَةٌ من الدلافين الشابةِ مُخْرِجَةً

رؤوسَها من الماءِ. فلما رأته قادمًا أخذت تصيحُ وتسبَحُ بسرعة وتقفزُ في الهواءِ مُرحِّبةً به، فرِحةً بقدومهِ!

وقرَّر هذه المرة ألا يكتفيَ باللعب معها، بل أن يجدَ وسيلةً للتفاهم معها. فقد اكتشف أنها مخلوقاتٌ ذكيةٌ، يسهلُ تدريبُها وتلقينُها بعضَ الإشاراتِ. وقضى بياضَ نهارِه يدرِّبها على الذهابِ والإيابِ والْتقاطِ الأشياءِ التي يُلقي بها بعيداً وإعادتِها إليه. وكان يُطْعِمُها الأسماكَ الصغيرةَ، مُكافأةً لها على طاعتِها له، فكانت تتنافسُ في تلبية رغَباتِه...

* * *

ولم يمضِ شهرٌ على ترويضِه لها حتى تعلَّمت كيف تجرُّه خلفَها بعيداً داخلِ البحر. وصنع لها لُجُمًا من الجلدِ والحبالِ، وصار يوجِّهُها حيثُ شاء. وتعلَّم هو كيف يقفُ على ظهريْ دلفينينِ كبيرين في نفسِ الوقت، ويُبحرُ بهما، وكأنه يسيرُ فوق الماءِ!

وكان على الشاطئ قارِبٌ خشبيٌّ رمَى به البحرُ، وهو ما يزالُ في حالةٍ جيدةٍ، فأزال الرملَ من حولِه، ووضع تحتَه عدداً

من الجـذُوعِ. ثـم ربطَه بحـبلٍ، وربط به عـددًا من الدلافين، ووقف يصيحُ بها ويحثُّها على سحبِه. ودفع هو القاربَ من الخلفِ، فَتَزَحْزحَ وانزلَقَ، وتدحرجَ بسرعةٍ نحو الماءِ. وقفزَ هو إلى داخِلِه، فـأبحـرَ به، وهو مُمسِكٌ بالحـبلِ يصيحُ بالدلافين صيحاتِ الإعجابِ والتشجيعِ، وكأنه يقودُ عربةً تجرُّها الخيلُ. ودار بالقارِب دورةً واسعةً داخلَ البحرِ ثم عاد إلى الشاطئ، وهو يكادُ يطيرُ من الفرَحِ لنجاحِ تجربته!

كانت التجربةُ، بالنسبةِ إليه، مجرَّدَ لُعبةٍ اخترعها، ولم يكُنْ يدري أن هذه اللعبةَ ستنفَعه في يومٍ من الأيامِ نفعًا عظيمًا! ولحُسْنِ حظه لم يلاحِظْ أحدٌ من أهلِ القريةِ أو القُرَى المجاورةِ ألْعابَهُ هذه، فقد كان الخليج محاطًا بغابةٍ كثيفةٍ وصخورٍ عاليةٍ.

* * *

وفي صباحِ يومٍ فوجئَ بحوتٍ ضخمٍ أسودِ الظهرِ، أبيضِ البطنِ يلعبُ مع الدلافين، وهي تقفزُ فوقَه وتدورُ حولَه كالخواتِم. وحين ظهرَ يونسُ أسرعت الدلافينُ نحوَه مُرحِّبةً به، وتبِعَها الحوتُ وفعلَ مثلَها.

وتردَّد يونسُ في الدخولِ إلى الماءِ، فأخذت الدلافينُ تصيحُ به وتحتجُّ وتضربُ الماءَ بذُيولِها! فنزلَ إلى الماءِ حذراً من أن يكونَ الحوتُ الضخمُ مفترِساً.

ولكن الدلافينَ أحاطت به، وسبحت أمامَه وحوالَيْه، فتجرَّأَ على الاقترابِ منه.

وقصدَه الحوتُ الضخمُ، ودنا منه بوجهِه الكبيرِ وعينيه الواسعتين، فجَمَدَ يونسُ في مكانِه من الرعبِ! ودخل بينهُما صديقُه الدلفينُ الصغيرُ الذي أطلقَ عليه يونسُ اسمَ غطَّاس، كأنما ليُقدِّمَه إليه، فتشجَّعَ يونسُ، ورفع يدَه بُهدوءٍ ووضعَها على أنفِ الحوتِ. وزاد الحوتُ اقترابًا، فمسَّدَ يونُس بكفِّه خَطمَه الناعمَ، فحركُ الحوت رأسَه يطلُبُ المزيدَ. فاطمأنَّ يونسُ إلى أنه حوتٌ مسالمٌ، وأنه مجرَّدُ طفلٍ كبيرِ الحجمِ يُريدُ اللعبَ. وأخذ يونسُ يُلاعِبُ الدلافين أمامَه، فتقدَّم الحوتُ كذلك يطلُبُ حقَّهُ من المُلاعبةِ.

وهكذا تكوَّنت بين يونسَ والحوتِ علاقةُ صداقةٍ جميلةٍ...

* * *

ومرَّتِ الأيامُ . . .

وتدرَّب الحوتُ على إطاعةِ كثيرٍ من أوامرِ يونسَ وإشاراتِه .

وتدرَّبَ يونسُ على ركوبِه إلى داخلِ البحرِ والابتعادِ به عن الشاطئ حتى تختفيَ اليابسةُ ولم يكن يرجعُ به حتى يزْرَقَّ جلدُه ويرتعشَ من البردِ والجوعِ والتَّعَبِ!

ودرَّبه على جَرِّ القارِب بموازاة الشواطئ لاستكشافِها ومعرفةِ خباياها، خصوصاً المغاوِرَ والكهوفَ العميقةَ التي تكثُرُ بالمِنطقةِ. وعاد من إحدى رحلاتِه بسلَّةٍ عامرة ببَيضِ النَّوارِسِ.

وحين رآها «سي حدُّو»، الراعي العجوزُ، جُحَظَتْ عيناه، وقال له: «إنَّ هذا البَيضَ ثروةٌ! وفي المدينةِ من يشتريهِ بأضعافِ ثمنِ البَيْضِ العاديِ! فهناك من يعتقِدُ أن فيه فوائدَ صحَّيةً وعلاجًا لعددٍ من الأمراضِ.»

وعرض «سي حدُّو» أن يتولَّى بَيْعَه في سوقِ المدينة، فوافقَ يونسُ على أن يصحَبَه إليها.

* * *

وفي صباحِ اليوم الموالي استأذَنَ يونسُ أمَّه في الذهابِ إلى

السُّوقِ، فوافقت على مَضَضٍ، وحذَّرته من أن يراه أحدُ عيونِ وزير الحربِ، مرهوبٍ الدفَّانِ. فلبِسَ جلبابًا صوفيًّا باليًا، وأدْلَى قَبَّهُ على وجهِه، كما يفعلُ طلابُ القرآنِ بالمِنطقةِ وذهب إلى المدينةِ.

وأُعجِبَ يونسُ بلَغَط السوقِ وازدحامِ الناسِ والبهائم وتراكُمِ السِّلَعِ. وقصد «سي حدو» دكانَ أحدِ التجارِ الأغنياءِ الذين كان يعرِفُهم، ووضع أمامَه سلَّةَ البيْضِ النَّادرِ، فتهلَّلَ وجهُ الرجلِ. وبعد تفاوُضٍ على الثمنِ، قرَّر التاجرُ أن يأخذَ البيضَ بالثمنِ الذي طلبَ العجوزُ، على أن يأتيَهُ، هو دونَ غيرِه من التُّجارِ، بكلٍّ ما يعثُرُ عليه منه في الكهوفِ.

وقبل أن يذهبَا حضرَ جنديٌّ شاب بِبِذْلَتِهِ العسكريةِ الحمراءِ وعِمامَتِه البيضاء، فسلَّم عليه التاجرُ بحرارةٍ، وأخذ يسألُه عن أحوالِه وأحوالِ أهلِه، ثم همسَ في أُذُنِه: «وكيفَ هي أحوالُ مولانا السلطانِ؟»

فعرف يونسُ أن الجنديَّ مِن حَرَسِ السلطانِ الخاصِّ. وتظاهرَ الراعي بتوديعِ التاجرِ، وانْتَحَى جانبًا بيونُسَ، وهَمَسَ

في أذنهِ أنْ ينصتَ إلى ما سيقولهُ الجنديُّ. وسمِعَا الجنديَّ يقولُ للتاجرِ: «مولانا السلطانُ ذهبَ للحجِّ عن طريقِ البحرِ. وكنَّا في وداعِ سفينتهِ بالميناء.»

ورفع التاجرُ كفَّيهِ بالدعاءِ للسلطانِ بالحجِّ المبرورِ والسَّعْيِ المشكورِ وسلامةِ العودةِ إلى أرضِ الوطنِ. ثم همس سائلاً الجنديَّ عمَّن ذهب مع السلطانِ. فقال الجندي: «جميعُ وزرائِه ورجالِ دولتِه.»

ثم انحنى على أُذن التاجرِ وهمَسَ باسمًا: «وجميعُ من لا يثِقُ في ولائهم له، وذلك حتى لا يتركَهُم وراءَه!»

وأخذ يُعَدِّدُ له أسماءَ كبارِ المنافقين، فسأل التاجرُ مستغرِبًا، وقد زاد فضولُه: «ولكنْ لمن تَرَكَ البلادَ؟»

فقال الجندي: «تركها في اليَدِ الأمينةِ، يدِ وزيرِ الحربِ والخادم المخلصِ الوفيِّ للسلطانِ، مرهوبٍ الدَّفانِ!»

وأخذ يذكُرُ مواقِفَه العديدةَ في قمْعِ الثوراتِ وإطفاءِ الفِتَنِ الكبرى، مثل فتنةِ عيد الأضْحَى، يوم هاجَم العسكرُ مجلسَ السلطانِ، وكاد كبيرُهم يقتُلُه، لولا الدَّفان الشُّجاعُ الذي

ارتمى على صدرِ السلطانِ ليتلقّى الطَّعنةَ بدلاً عنه، ويموتَ فداءً له!

وكانت هذه الأخبارُ بالنِّسبةِ للرَّاعي العجوزِ أهمَّ من كلِّ شيء فَعَلَه في ذلك اليوم! وطَوالَ طريقِ العَودةِ كان «سي حدو» يتخيَّل وُجوه عمَّالِ المزرعةِ وهم يُنصِتونَ إلى أخبارِه الجديدةِ فاغِري الأفواهِ إعجابًا به وتقديرًا لعِلْمِه! أما يونسُ فقد جلَسَ على ظهْرِ بَغلتِه واجمًا تتعاوَرُه الهواجِسُ والشُّكوكُ.

وحَولَ مائدةِ العشَاءِ حكَى لأمِّه ما سمِعَه من إبحارِ السلطانِ إلى الحجِّ، ومن بقاءِ الهَمَجِيِّ الظالِمِ مرهوبِ الدّفان نائبًا عنه ووصيًا على العرشِ.

* * *

ومرتَّ الأيامُ، ونسيَ يونسُ رحلَتَه إلى المدينةِ، وانغمسَ في اللَّعبِ مع الدلافين والحوتِ الضخمِ، لدرجةِ أن أمَّه أخذت تعيِّرُه بذلك، وتقول له: «ستَنْبُتُ لك أصدافٌ وزعانفُ وتصبحُ سمكة أو حوتًا من فْرطِ إدمانك على البحرِ!»

فكان يَردُّ عليها: «لو ذهبْتِ معي يومًا واحداً، ورأيتِ

بعينيكِ ما تفعَلُه معي الدلافينُ والحوتُ الكبيرُ لأَدْمَنْتِ أنتِ كذلكِ النزولَ إلى البحرِ مثلي!»

وفي البحرِ شعَرَ يونسُ بغيرةِ الدلافينِ من ملاعَبَتِه للحوتِ الكبيرِ وإهمالهِ لها. فكانت تتجمَّعُ حولَه وتُخرجُ رؤوسَها من الماءِ، وتزعقُ في وجههِ محتجَّةً، فيُلاعِبُها هي الأخرى حتى ترضَى.

* * *

وجاءَ عيدُ الأضحَى ولمْ ينزلْ إلى البحَرِ. ذَهَبَ للصَّلاةِ في جامعِ القريةِ لابسًا أحسنَ ما عندَه. وعادَ ليساعد في ذبحِ الخَروفِ وسلخِهِ وشيِّ الرأسِ والكوارعِ وغسْلِ الأحشاءِ، إلى غير ذلك من مَشاغلِ العيدِ.

وبعد الغَداءِ أحسَّ بالقُنوطِ والشَّوقِ إلى أصدقائه الحيتانِ التي لنْ تفهمَ سببَ تغيُّبِه. فخلعَ ملابسَ العيدِ ونزل راكضًا إلى البحرِ. وكان الوقتُ عصرًا والمكانُ أكثرَ خلاءً ووحشةً منه في الأيامِ العاديةِ.

وما إن أشرفَ على الشَّاطئِ حتى باغتَهُ مشهدٌ غيرُ

مألوفٍ. كانت الدلافينُ تدفعُ أمامَها شيئًا لم يميِّزْهُ. وحين رأته أخذتْ ترفعُ الشَّيءَ فوقَ سطحِ الماءِ وتصيحُ به، وكأنَّها تَدْعوه للقُدومِ. وخلعَ ملابسَه وخاضَ الماءَ إليها وهو يُنْعِمُ النَّظَرِ في ذلك الشَّيءِ. فتبين لهَ أنه جُثةُ غريقٍ بشَريٌّ أسودَ. ودقَّ قلبُه بعنفٍ، فلمْ يسبِقْ له أن رأى جُثةَ غريقٍ من قبلُ!

واستجابةً لرغبةِ الدلافين جمعَ شجاعتَهُ وسَبَحَ نحوَه. وبمجرَّدِ وصولهِ إليه وضعَ أصابعَهُ على وريدِه، فإذا الغريقُ مايزالُ حيًّا! وأمسَكَه من تحتِ ذَقْنِه وسَحَبَه إلى الشاطئِ. وهناك بَطَحَهُ على وجههِ ورفَعَ ساقَيه إلى أعلَى، فأخذَ الشابُّ الأسودُ يلفُظُ ما كان في جَوفِه من ماءٍ ويسعُلُ سُعالاً مكْبوتًا. وحين لم يبقَ في جَوفِه ماءٌ قَلَبَه على ظهرِه، وانحنى عليه يكلِّمُه: «هل تسْمَعُني؟»

وفتحَ الرجلُ عينيهِ وأغمَضَهما وكأنه يقولُ «نعم». فقالَ له يونسُ:

«انتظرْني هُنا. سأذهبُ لآتيَ بمنْ يُساعِدني على حَمْلِكَ إلى الدَّارِ.»

وركضَ نحوَ البيتِ، وعادَ يقودُ بغلةً تَسحَبُ وراءَها لوحًا واسعًا، كان يونسُ يستعمِلُه لنقلِ أكياسِ السَّمادِ والمحاصيلِ، وسحبَ الغريقَ فوقَه من تحتِ إبطَيه برفقٍ، ثم قادَ البهيمةَ إلى الدَّارِ حيثُ كانتْ أمُّه و« سي حَدُّو » في انتظارِه فأَدخلا الغَريقَ إلى غرفةِ الضُّيوفِ، وتعاونَ « سي حدو » ويونسُ على خلعِ ملابسهِ ولفِّهِ في بطَّانيةٍ دافئةٍ.

وأذابتْ أمُّ يونسَ بعضَ الزُّبدِ في العسَلِ، وجاءت به إلى الرجلِ وأخذتْ تُطعِمُه وتُشجِّعُه على ابتلاعه. وما استقرَّ الخليطُ في مَعِدتهِ حتى سَرى الدفءُ إلى سائرِ جَسدِه، ففتحَ عينَيهِ، ونظرَ حَوالَيْهِ، وأخذَ يُتَمْتِمُ بكلماتِ الشُّكرِ لمنقذيه. وخرجَ الثلاثةُ، وتركوه يستريحُ فنامَ نومًا ثقيلاً.

ولم يصْحُ إلا بعدَ صلاةِ العصرِ. فجاءته أمُّ يونسَ بِشُربةِ بصلٍ ساخنةٍ، وساعدَه يونسُ و« سي حدو » على القعودِ، وأطعمتهُ أمُّ يونسَ الشُّربةَ وهي تهنِّئهُ بالسَّلامةِ والنَّجاةِ.

وسأله الراعي عن سِرِّ غَرقهِ، فأجابه بسؤالٍ آخرَ: « أين أنا؟ »

فقال يونسُ: «أنتَ في مزرعةٍ خاصَّةٍ قُربَ قريةِ السَّاحلِ بمنطقةِ الشَّمالِ.»

ويبدو أنَّ الجوابَ طَمْأَنَهُ، فقال: «أنا بحَّارٌ بإحْدَى سفنِ الشَّحنِ الكبيرةِ. جَرَفَني الموجُ وسقطتُ في البحرِ ليلاً، ولم ينتبه لي أحدٌ. وبقيتُ أسبحُ على غيرِ هُدىً حتى أحاطتْ بي مجموعةٌ من الحيتانِ، فظننتُ أنها ستفْتَرِسُني! فأغمضْتُ عينيَّ، وأخذتُ أتشهَّدُ، فإذا الحيتانُ دلافينُ مُسالمةٌ لطيفة تدفَعُني وتحمِلُني على ظُهورِها حتى رَمَتْني على هذا الشاطئ. ويبدو أنني أُغمي عليَّ من الإرهاقِ، فلم أُفِقْ إلا وأنتم بجانبي.»

وسألهُ يونسُ عن اسْمِه، فقالَ بعدَ تردُّدٍ: «اسمي فاتحٌ.»

وسألتْه أمُّ يونسَ: «وأينَ أهْلُكَ؟»

فقال: «لا أهْلَ لي. أنا يتيمُ الأبوَين. ولا شَغْلَ لي إلاّ البَحرُ. كنتُ مساعدَ صيادٍ، والتقيتُ ببحارةٍ أجانبَ، رَسَتْ سفينتُهم بمدينتِنا، وساعدْتهم في جَولاتِهم بالأسواقِ على شراءِ المؤنِ، وترجمتُ بينهم وبينَ الناسِ، فَعَرضوا عليّ السفرَ

معهم إلى البرازيلِ كبحَّار فَقَبِلْتُ. وأنا الآنَ بلا شغل.»

فقالت أمُّ يونسَ: «لا تحزَنْ، يا ولدي، ولا تقلقْ! نحنُ في حاجةٍ إلى يدٍ عاملةٍ هنا في المزرعةِ. وإذا رضيت بالبقاءِ معنا فمرحبًا بكَ.»

فقال فاتحٌ متأثرًا: شكرًا، يا سيدتي! لن أنسَى لكِ هذا الجميلَ! ولن تندَمي على استخدامي، فأنا أحبُّ العملَ.»

وأفردتْ له أمُّ يونسَ غرفةً صغيرةً ليُقيمَ فيها، وأعطتهُ بعضَ ملابسِ يونسَ القديمةِ، وعيَّنَ له «سي حدو» عملاً يقومُ به، ودرَّبهُ عليهِ، فتعلَّمَه بسرعة، وأخذَ يطلُبُ المزيدَ من المسؤولياتِ، وكأنه لا يطيقُ الفراغَ!

ولاحظَ عليهِ عُمَّالُ المزرعةِ صمتَه الطويلَ وانطواءَهُ وحَذَرَه وارتيابَه، وضَبَطَه يونسُ مرةً وهو يدقِّقُ النَّظرَ في وجههِ في غفلةٍ منه. وحينَ سألهُ في ذلكَ أَنْكَرَ أولاً، ثم تراجعَ وقال: «في الحقيقةِ، أنظرُ إليكَ لشَبَهِك الكبيرِ برجلٍ كنتُ أعرفُهُ.»

ولم يزدْ. وتذكَّرَ يونسُ ما كانتْ تقولُ له أمُّه منْ أنَّه صورةٌ طبقُ الأصلِ لأبيهِ، خُصوصًا بعدَ أن كبِرَ وأصبحَ شابًا. وألحَّ

يونسُ على فاتحٍ في أنْ يقولَ له المزيدَ عن شبيهِه؛ ماذا كانَ اسمُه؟ وماذا كانَ يفعلُ؟ وفي أيِّ مدينةٍ كان يعيشُ؟ فاعتذرَ فاتحٌ بأنه لمْ يكنْ يعرِفهُ كلَّ هذهِ المعرفةِ، كان فقط يُصادِفهُ في طريقهِ إلى عَمَلهِ، ويتبادلانِ التحيَّةَ.

وأحسَّ يونسُ بأن فاتحًا كان متحفِّظًا، وأخبرَ أمَّه بما قاله له عن شبَهِهِ برجلٍ كان يعرِفُه بالعاصمةِ، وفُوجِئتْ الأمُّ وشردَ ذِهنُها قليلاً، ولكنَّها أفاقتْ بسرعةٍ من شُرودِها، وقالت: «أنا كذلك ارتبتُ في أمرهِ.»

وأضافتْ: «أكيد إنه ليسَ من أبناءِ المنطقةِ! لهجتُهُ تختلفُ عن لهجةِ أهلِها. وهو منضبطٌ ومهذَّبٌ، خِلافَ أهلِ المهنةِ التي ادَّعىَ الانتماءَ إليها.»

وطلبتْ منه أمُّه أنْ يدعوَه للعشاءِ على مائدتهما تلكَ الليلةَ. وأعدَّتْ عَشاءً سلطانيًّا من النوعِ الذي كانَ يأتيهم في الأعيادِ منْ دارِ السلطانِ، أيامَ العزِّ الكبيرِ الذي لَم يدُمْ!

وأثناءَ العَشاءِ أخذتْ تُراقبُ حركاتِ فاتحٍ كلَّها، منَ السَّلامِ إلى خلْعِ نَعليهِ إلى غَسْلِ يَديهِ، إلى جلوسِه وكلماتِ

الشُّكرِ العفْويَّةِ التي كانتْ تصدُرُ عنهُ، وطريقةِ أكلهِ المتَمَهِّلةِ المؤدَّبةِ وبدونِ صوتِ مضغٍ ولا مدٍّ اليَدِ إِلى ما أَمامَ غيرِه.

وحين تأكَّد حدسُها أخذتْ قطعةَ لحمٍ، وقَطَّعتها ثلاثَ قطعٍ متساويةٍ وضعتْ إحداها في فَمِ يونسَ، والثانيةَ في فَمِ الضَّيفِ، والثالثة في فَمِها، وشَكَرَها فاتحٌ بِخَفْضِ رأسِه، دونَ أنْ يتكلَّمَ لامتلاءِ فَمِه. وابتلعتْ مُضْغَتَها، وقالت: «وَلَدي فاتحٌ، الآن اشتركْنا في الطعامِ، ووَجَبَ علينا الصِّدقُ في المعاملةِ فهلاَّ صارحْتَنا بِحقيقةِ أمرِكَ؟ ولكَ علَينا ألاَّ يَعرفَه أحدٌ غيرنا أَبدًا!»

وسكتَ فاتحٌ، فقالتْ أمُّ يونس:

- أنتَ لستَ مِنْ أهل هذه المنطقةِ، أليسَ كذلكَ؟

فأجابَ فاتحٌ مستغرِبًا:

- وكيفَ عرفتِ؟

- مِنْ لهجتِكَ، فهي جنوبيَّةٌ. وإذا صدقَ حَدْسِي، فأنتَ من دارِ السُّلطانِ!

وبُهت البَحَّارُ لانكِشافِ أمرِهِ في هذه البقعةِ النَّائيَةِ

البعيدةِ عن العاصمةِ. وانهارتْ مقاوَمتُه، وبَدا عليهِ التَّأثُّرُ، وامتَلأتْ عيناهُ بالدُّموعِ، فأخذَ يُكَفْكِفُها بظاهِرِ يدهِ خَجلاً من ضَعْفه.

فقالت أمُّ يونسَ:

- لا خوفَ عليكَ، يا ولدي! إذا كنتَ فَعلتَ ما تستحقُّ عليهِ العقابَ فأنتَ هنا في أمانٍ! خُصوصًا إذا كنتَ مظلومًا!

فاطمأنَّ فاتحٌ، وقال:

- فعلاً، يا سيِّدتي! إنَّ صَدْري يَنوءُ بسرٍّ كبيرٍ وخطيرٍ، ولمْ أَعُدْ قادراً على حَملهِ وحْدي!

وهنا نَهضَ يونسُ، وأطلَّ خارجَ الغرفةِ ليتأكَّدَ مِن خُلوِّ المكانِ. وأقفلَ البابَ وعاد إلى مكانهِ ليُنْصِتَ إلى قِصَّةِ فاتحٍ الذي راحَ يروي قصَّته قائلاً:

- أنا فعلاً من دارِ السُّلطانِ، وُلدتُ فيها وفيها نشَأتُ. وحين كَبِرتُ خيَّرني قائدُ الخدمِ بين أنْ أبقى في خدمةِ السُّلطانِ بالقصرِ أو أن أَلْتحِقَ بعملٍ آخرَ خارجَهُ. وكنتُ قرأتُ في كتابِ «ألْفُ ليلةٍ وليلةٍ» عن مغامراتِ سندباد في رِحْلاتِه

السَّبعِ، فاخترتُ العملَ بالبحريَّةِ السُّلطانيَّةِ. وقضيتُ فيها عامين تدربتُ فيهما على جميعِ مهاراتِ البحرِ وفُنونِه، وزُرتُ عدداً من البلدانِ، وتجولتُ في مُدنِها الشاطئيةِ.

ومرَّ مركبُنا بهذه الشَّواطئِ الجميلةِ مراراً، فلمْ يَخطرْ ببالي أبداً أنني سأنزِلُ بها، وأعرِفُ أهلَها، حتى جاءَ يومٌ قيلَ لنا إنَّ مركبَنا سَيُرافقُ سفينةَ السُّلطانِ إلى خارجِ مياهِنا الإقليميَّةِ لتقديمِ تحيَّةِ الوداعِ للسُّلطانِ الذاهبِ لحجِّ بيتِ اللهِ الحرامِ.

وكنتُ في مركبِ القيادةِ، وكان أسطولُنا يتكوَّنُ من ستةِ مراكبَ حربيةٍ ضخمةٍ مزودةٍ بمدافعَ ثقيلةٍ. وكنتُ أنا مكلَّفاً بخدمةِ أميرِ البحرِ، عبَّاسٍ الغزواني، قائد الأسطولِ. وكان وزيرُ الحربِ، «مرهوبٌ الدفَّان» قد ذهبَ مع السُّلطانِ لوَداعِه.

وقبْلَ أن يفترِقَ الأسطولُ عن السفينةِ السُّلطانيَّةِ رأيتُه يقبِّلُ يدَي السُّلطانِ ظَهْراً وبَطْناً، ويبكي كالطِّفلِ، ويقول: «لِمنْ ستترُكُنا، يا مولاي!؟ إنَّنا بدونِكَ أيتامٌ! ولن يرتاحَ لنا بالٌ

أو يهدأَ خاطرٌ حتى تعودَ إلينا سالـمًا غانمًا. . . »

وانتـقلَ إلى سـفـينَتِنا. وحين انفـصلتْ عنَّا السـفـينةُ السُّلطانيـة أطلقْنا إحدَى وعـشرينَ طلقـةً من مـدافعِ المراكبِ الستَّةِ. وانتظرْنا حتى اختـفتْ السفـينةُ السلطانيةُ وراءَ الأفقِ، وعدنا.

وقضَينا أكثرَ من شهـرٍ في طريقِ عودَتِنا إلى العاصمةِ. كنَّا نتوقَّفُ عندَ كلِّ مرفأٍ كبيرًا كان أو صغيرًا، فكان ولاةُ المناطقِ يجمعونَ الجماهيرَ الغفيرةَ لاستقبالِ وزير الحربِ، « مرهوبٍ الدفانِ »، استقبالَ الفاتحين. وتبيَّن لي أنَّ الوّلاةَ جميعًا مدينونَ له بتعيينِهم أو ترقِيَتِهم أو الإنعامِ عليهم بالأراضي والقصورِ وإغراقِهم في المالِ، فكانوا يدينونَ له بالولاءِ من دونِ السُّلطانِ الذي لم يكنْ أحدٌ يراهُ أو يستطيعُ الاقترابَ منه!

ومرَّ شهرانِ على ذهابِ السُّلطانِ، واقتربَ موعدُ عودَتِه. وجاءنا الأمر بالإبحارِ لاستقبالِه ومرافقتِه إلى مرفأ العاصمةِ. وانضمَّ إلينا وزيرُ الحربِ وكبارُ أعوانِه. وكانوا جميعًا يتناولونَ

وجباتِهم على مائدة أميرِ البحرِ في قمرتِه الكبيرةِ. وكان منْ واجِبي أنْ أقفَ ببابِ القمرةِ الخارجي كحاجبٍ أفتحهُ لخدَمِ المطبخِ، وأستأذِن لهم على الأميرِ.

وفي آخرِ ليلةٍ لي بالمركبِ، وقفتُ كعادتي بالبابِ حتى انتهَى العَشاءُ، وخرجَ جميعُ الخدَمِ بأوانيهم. وبينما أنا أُقفِلُ البابَ وراءَهم رأيتُ وزيرَ الحربِ، «مرهوبًا الدَّفانَ»، يُخرِجُ خارِطةً كبيرةً ملفوفةً من داخلِ جُعبةٍ نُحاسيَّةٍ، ويَنشُرُها فوقَ المائدةِ. وكانت الليلةُ هادئةً والريحُ رُخاءً، فترامَى إلى سمْعي من داخلِ القمرةِ صوتُ الدفانِ الجهْوريِّ، رغمَ محاولتِه خفضَه.

ودفعني الفضولُ للإنصاتِ فسمِعتُ، ويا هولَ ما سمعتُ!

كانت الجماعةُ تتآمرُ على السلطانِ، وتُخطِّطُ لإغراقِ سفينتِه بمنْ فيها أمامَ هذه الشَّواطئ! كانت السفينةُ ستمرُّ من هنا في منتصَفِ الليلِ. وهذه منطقةٌ خالية لا عُمرانَ فيها ولا مَرافئَ، ولن تخرجَ منها سفينةٌ للتَّرحيبِ بالسُّلطانِ لتُفسِدَ

عليـهم الخطةَ. وقـرَّروا أن يكونَ الهـجـومُ في ليلةِ التـاسعِ والعـشرين من هذا الشَّهرِ، وهي ليلةُ مِحاقٍ كاملٍ، يحتجبُ فيها البدرُ تمامًا، ويسودُ الظلامُ الحالكُ!

وحسَبَتْ أمُّ يونسَ على أصابعِها الأيامَ المتبقيةَ للهجومِ فإذا بِها ثلاثةٌ فقط، فضربتْ صدرَها، وصاحتْ صيحةً مكبوتةً:

« يا إلهي! سيقتلونَ السلطانَ على شاطئنا ويتَّهمونَنا بقتلهِ! »

وكان يونسُ ما يزالُ ينتظرُ نهايةَ القصَّةِ، فقالَ لفاتحٍ:

« وماذا حدثَ بعدَ ذلكَ؟ »

فقالَ فاتحٌ: وبينَما أنا أُنْصِتُ، وأُذني على شِقِّ البابِ، إذ انفتحَ البابُ فجأةً، وظهرَ وجهُ الدُّفانِ المفزِعِ! فأمسكَ برَقَبَتي وقال: « أنتَ هو إذَن! منذ وقعتْ عيني عليكَ وأنا أتساءلُ أين رأيتُ ذلكَ الوجهَ؟ »

وكنتُ أدعو اللهَ ألاَّ أقعَ في قبضتهِ أبدًا! فما زلتُ أذكرُ المعاملةَ الوحشيةَ التي عاملَ بها القُوَّادَ الذين اتهمهُم بالتمرُّدِ على السُّلطانِ! وكيف قَتلَ عدداً منهم، وفي مُقدمَتِهم قائد الألفِ، سعيدَ مباركٍ الذي قلتُ لكَ إنكَ ذكَّرتني بهِ،

يا يونسُ، فهو شبيهُكَ تمامًا!

وقال يونسُ مستعجلاً: «وماذا حدثَ حين اكتشفكَ؟»

أجابَ فاتحٌ: ضَرَبَ رأسي مع البابِ ضربتين قويتين فقدتُ الوعيَ على إِثْرِهِما! ولابدَّ أنه أَلْقَى بي في البحرِ! فلم أُفِقْ إلاّ على أصواتِ الدلافينِ وهي تدفعُني نحو الشاطئ، وترفعُني فوقَ الماءِ حتى لا أَغرَقَ!

ونهضتْ أمُّ يونسَ، وقد اصْفرَّ وجهُها وبَدا عليها الخوفُ الشَّديدُ، وقالت لابْنِها: «تعالَ يا يونسُ نجمعُ أمتعتَنا. لابدَّ أنْ نرحلَ الليلةَ مِن هنا! لابدَّ أن نبتعدَ عن هذا الشاطئ الملعونِ!»

فقال يونسُ لفاتحٍ: «ألا يجبُ أنْ نُخبر أحداً من أعوانِ السلطانِ المخلصين حتى يمنعَ وقوعَ هذه الجريمةِ؟»

فصاحتْ أم يونسَ معترِضةً: «ماذا تقول!؟ أعوان السلطانِ الأقربون هم مدبِّرو المؤامرةِ!»

ونظرَ يونسُ إلى فاتحٍ وسأل: «أليسَ للسلطانِ أصدقاء غيرَ مرهوب!؟»

فحرَّك فاتحٌ رأسه نافيًا وقال: «سلطانُنا، رغمَ ذكائهِ

الخارقِ، وفضائلهِ المتعددةِ، له عيوبٌ قاتلةٌ! منها وضْعُهُ ثِقَتَهُ الكاملةَ في شخصٍ واحدٍ، وتسليمُه مقاليدَ الحكمِ كلَّها، ورفضُ تصديقِ أي وشايةٍ به! وقد بلغت به الثِّقةُ بمرهوبٍ أنه كلما وصلتْه به وشايةٌ أو شكايةٌ أحالها إليه! وحين عَلِمَ مُحِبُو السلطانِ بما حدثَ لأصحابِ الوشاياتِ على يَدِ مرهوبٍ وأعوانهِ كفُّوا عن الكتابةِ إليه بما يَرَونَه من جرائمهِ ومؤامراته، فصار يمارسُها علانيةً ودونَ خوفٍ من أن تصلَ إلى السلطان!»

واستطاعَ يونس أن يُقنعَ أمَّه بالبقاءِ تلكَ الليلةِ في المزرعةِ. فالسفرُ في الليلِ غير مأمون العواقبِ خصوصًا والسلطانُ غائبٌ، والسلطة في أيدي مرهوب وأعوانه. وكان مرهوبٌ لايختار أعوانه إلا من الذين هم على شاكلته من القتلة وقطاع الطرق، ليرهب بهم الناس العاديين.

* * *

وسهرَ يونسُ تلكَ الليلةَ مع فاتحٍ، يسألُه عن عمَلهِ في الأسطولِ وعن المراكبِ الحربيَّةِ وعددِ جنودِها وحجمِ مدافعِها ومدى طلقاتِها. وكان فاتحٌ يجيبُه بالتفصيلِ، سعيداً باهتمامه.

ثـم انتـقلَ يونسُ إلى السـؤالِ عن السَّـفينةِ السُّلطانيَّـة، وطلبَ من فاتحٍ وصْفَها بالتفصيلِ وبالرَّسْم إذا أمكنَ. وعَدَّ فاتحٌ كثرةَ أسئلةِ يونسَ شيئًا طبيعيًا وفُضولاً علميًّا محمودًا من غلامٍ في سنِّ يونس ورغبةً في إشباعِ جوعِه إلى المعرفةِ التي حُرِمَ منها في هذه البقعةِ المنعزلةِ البعيدةِ عن المدارسِ والمكتباتِ.

وتعبَ فاتحٌ من الإجابةِ، دونَ أن يتعبَ يونسُ من طَرحِ الأسئلةِ! وتمطَّى البحَّارُ وتثاءبَ وابتسمَ ليونسُ، وقال:

- لو لَمْ أكنْ أعرفكَ لقلتُ إنكَ جاسوسٌ يبحثُ عن أسرارِ السلطانِ! لماذا كلُّ هذه الأسئلةِ؟ وبماذا ستفيدُكَ؟

وظهرَ الجَدُّ على وجهِ يونسَ، وبدا كأنَّه كَبِرَ عشرَ سنواتٍ، وقال:

- يمكنُك أن تُسمِّيني جاسوسًا، ولكنْ لصالحِ السلطانِ.

فنظرَ إليه فاتح غيرَ مصدِّقٍ، وطارَ النومُ من عينيهِ، وقال:

- ماذا تعني؟

- لديَّ فكرةٌ لإنقاذِ سفينةِ السلطانِ! قد تكونُ صبيانيَّةً أو

خياليةً، ولكنها قد تنجحُ...

فسأل فاتحٌ غير مقتنعٍ:

ـ ما هي هذه الفكرةُ؟

ـ أولاً، يجب أن تُقْسِمَ وتعاهدَني أمامَ اللهِ على الوفاءِ وكِتمانِ السرِّ، إذا لم توافِقْ على الخُطةِ!

فقال فاتحٌ متأثرًا:

ـ أبَعْدَ كُلِّ ما ذُقتُه على يَدِ مرهوبٍ السَّفَّاحِ تشُكُّ في رغبتي في إفشالِ مؤامرتهِ!؟ ورغم ذلك أنا مستعِدٌّ للقَسَمِ!

وأدخلَ يونسُ يدَه تحت وِسادتهِ، وأخرج مُصْحَفًا، فوضع فاتحٌ يدَه فوقَه وأقسَمَ أن يساعدَه على تنفيذِ خطَّتِه حتى ولو كانت مستحيلةً أو فيها هلاكُه!

وقضيا بقيةَ الليلِ يناقشان تفاصيلَ الخطَّة.

* * *

وتوقَّع يونس أنْ توقظَه أمُّه في الفجرِ ليغادِرَا المزرعةَ إلى بيتِ جَدِّه في الجبالِ، ولكنها لَم توقظْه إلا بْعدَ شروقِ الشمسِ. وحين سألها في ذلك قالت له: إنَّ رسولاً جاء من

جدِّه يخبرُها بأنَّه قادم إليهم، وإنها ستنتظرُ حتى يأتيَ وتخبرُه بالمؤامرةِ، ويذهبوا جميعًا معه إلى دارِ الجبلِ. وكَتَمَ يونسُ سُرورَه بالتطوُّرِ الجديدِ، فقدْ كان حائرًا في اختلاقِ عُذرٍ للبقاءِ في المزرعةِ لتنفيذِ خُطته.

وقضى نهارَه مع فاتحٍ يتدربان على الخطةِ. وحين رجعا في المساءِ فوجِئا بعدمِ قدومِ الجَدِّ، وبوصولِ رسولٍ آخرَ ليخبرَ أمَّ يونسَ بأن حالةَ استنفارٍ أُعْلِنَت في الجيشِ، وبأن الطُّرقَ كلَّها تعُجُّ بِنُقَطِ التفتيشِ وبالجواسيسِ والجنودِ، وبأنه يخشَى عليهما من الوقوعِ في قبضةِ جنودِ الدفَّانِ وينكشفَ سرُّهما، ونَصَحَهُما بالبقاءِ حيثُ هما والاختباءِ عن أَعينِ الرُّقباءِ.

* * *

وفي البحرِ، وغيرَ بعيدٍ من شاطئِ المزرعةِ، كانت ستَّةُ مراكبَ حربيةٍ ضخمةٍ مثقلةٍ بالمدافعِ والمقاتلين الأشدَّاءِ. كانت راسيةً في أحدِ الخُلْجانِ العميقةِ الواسعةِ، وأضواؤها مطفأةٌ، وهي تنتظرُ وصولَ سفينةِ السلطانِ للانقضاضِ عليها.

وفي مركبِ القيادةِ كان وزيرُ الحربِ «مرهوبُ الدفان»،

ينتظرُ إشارةَ عُيونِه المنبثَّة في البرِّ وعلى مرتفعاتِ الشواطئ ليتحرَّكَ.

ومرَّ أمامهم مركبُ الحراسةِ الذي يَسبِقُ سفينةَ السلطانِ، دون أن يرى شيئًا أو يَشُكَّ في شيءٍ. وأعطى عفاس الأوامر بالتحرُّكِ، فأمرَ أميرُ البحرِ رجالهَ برَفْعِ المراسي ونشرِ القلوعِ وإدلاءِ المجاديفِ. وخرجتْ المراكبُ من الخليجِ صفًّا واحداً وكأنها حُصونٌ عائمةٌ!

ولاحتْ سفينةُ السلطانِ قادمةً من بعيدٍ، وقد تلألأت أنوارُها وأضاءت ما حولَها، وكأنها ثُرَيَّتَانِ من بلُّورٍ، واحدةٌ فوق الماءِ والثانيةُ انعكاسٌ لها تحتَه!

وتهيَّأتِ المراكبُ الستةُ لتطويقِ السفينةِ السلطانيةِ من جميعِ الجوانبِ وملأَ رجالُ المدفعيَّةِ أجوافَ مدافعِهِم بالبارودِ وبالكُورِ الحديديَّة الضخمةِ، ووقفوا وراءَها بسفافيدِ الحديدِ المحميَّةِ في انتظارِ إطلاقِ النارِ على السفينةِ القادمةِ.

* * *

وعلى شاطئ المزرعةِ دفعَ يونسُ وفاتحٌ القاربَ العامرَ بالحبالِ

والأطواقِ الجلديةِ العريضةِ إلى داخلِ الماءِ، وركبا فيه، وجدَّفا قليلاً إلى الداخلِ. وهناك صفَّرَ يونسُ تصفيرةً خاصةً، فظَهَر رأسُ الحوتِ الضخمِ الأسودِ اللمَّاع، واقتَربَ من القاربِ. وركَّبَ له يونسُ حَوْلَ عُنُقهِ طوقًا جلديًا عريضًا مربوطًا بحبلينِ غليظينِ من جانبيْهِ على شكلِ لجَامِ دابَّةٍ. وصفَّرَ له فابتعدَ قليلاً. ثم صفَّر للدلافين فاقتربت صفًّا واحدًا كما دربَّها. وأخذ يونسُ وفاتحٌ يركِّبانِ لها هي الأخرى أطواقًا موصولةً بزمامِ الحوتِ الغليظِ.

وصفَّر تصفيرةً أخرى، فانطلق الحوتُ يَجُرُّ خلفَه القاربَ بمن فيه، تساعِدُه الدلافين عن يمينِه ويسارِه. وتوغَّل الموكبُ الغريبُ داخلَ البرِّ حتى توسَّط طريقَ السفنِ الكبرى. وهنا أحدثَ يونسُ بلسانِه تحت أسْنانه صوتَ طقطقةٍ، وجَذَبَ الحبلَ الأيمنَ، فدار الحوتُ يمينًا ليُواجِهَ السفُنَ القادمةَ من الشَّمال وهَمَزَه يونسُ بِجَذبة قويةٍ من الحبلِ، فانطلق يَشقُّ الماءَ بسرعةِ الزورق البُخاريِّ ويسحبُ خَلْفَه القاربَ!.

ولاحتْ أمامهُما مراكبُ «مرهوبٍ» المتربِّصَةُ بالسفينةِ

السلطانية، فانحرفَ يوسفُ بالقاربِ بعيداً عنها، دونَ أن تراه.

وظهرتْ لهما سفينةُ السلطان بأنوارِها المشعشِعَة، وهي تتبخترُ كبطَّةٍ سمينةٍ عائمةٍ، وتقتربُ من مرمَى مدافعِ الدقَّانِ الخائنِ! واقتربا منها فترامى إلى سمْعِهما صوتُ الموسيقى الأندلسيَّةِ وأصواتُ المطربين والمادحين عاليةً. وملأت أنوفَهم روائحُ الندِّ والعودِ القُماريِّ الغاليةِ وغيرِها من عطورِ الشرقِ النفيسة.

وهَمَزَ يونسُ الحوتَ فخفَّف من سُرْعته، وأخذ يدورُ حولَ سفينة السلطان. ومرَّ القاربُ بمحاذاة السفينة حتى ظنَّ يونسُ ورفيقه أن الحرسَ رأوْهما... ولكن هؤلاء كانوا منشغلين عما حولهم بالتفرُّج على ما كان يجري داخلَ السفينةِ من احتفالاتٍ ومآدبَ وطربٍ ورقصٍ وبهلوانياتٍ ومسرحياتٍ...

وقاد يونس القارب أمامَ السفينةِ وسارَ بسُرعَتِها. وأمسكَ فاتحٌ بحبلٍ الزِّمامِ الغليظِ، وأدخلَه في خُرصةٍ في مُقدِّمةِ السفينةِ تُستعمَلُ لجرِّها في المرافئ، وأحكَمَ رَبْطَهُ. وأعطى يونُس الأمرَ للحيتان بسَحْبِ السفينةِ...

وفي مـركـبِ قـيـادةِ الأسطولِ الكـامِن في الظَّلامِ كـان «مـرهوب الدفـان» يقفُ في بُرجِ القـيـادة مع الغـزواني، أمـيـرِ البحرِ. فلما رأى السفينةَ تقتربُ بسرعةٍ نزلَ ووقفَ بين المدافعِ ليُصـدِرَ لهـا الأوامـرَ بإطلاقِ النارِ. ودمـعتْ عـيناه بدمـوعِ التمساحِ المنتشِي المتربِّصِ بفريسته وبفَرْحةِ الانتصارِ، وقد أصبحَ قابَ قوسين أو أدنى من عرشِ السلطَنة!

ورغم ثِقَلِ السفينةِ السلطانيةِ، فقد تمكَّنَ الحوتُ الشابُّ والدلافين القويةُ من سَحْبِها. وفي كلِّ لحظةٍ كانت سرعتُها تزدادُ. وفزِع ركابُها بمن فيهم البَحَّارةُ والمقاتلون المُتَمَرِّسُون بتقلباتِ البحرِ من سرعةِ السفينةِ المفاجِئةِ وشدَّةِ ارتجاجِها. وسَقَطَ الموسيقيُّون على آلاتِهم والآكلون في قِصاعِ الطعامِ، وتشبَّث كلُّ راكبٍ بأقربِ شيءٍ ثابتٍ إليه، وكأنّ زلزالاً أصاب السفينة! وعلا التسبيحُ والابتهالُ والتوبةُ والضَّراعةُ إلى اللهِ طلبًا للنجاةِ.

وفوجِئ ركَّابُ المراكبِ الحربيَّةِ الستةِ، وعلى رأسِهم مرهوبٌ، بالسفينةِ السلطانيةِ تمْرُقُ من أمامِهم بسرعةٍ لم يعرفوا

مثلَها قطّ في حياتِهم! كانت أشرعتها مُقعَّرَةً من الأمامِ ومحدَّبةً من الخلفِ، وكأنها تواجِهُ الريحَ بدلَ أن تسيرَ في اتجاهِهِ وبقوةِ دفعِهِ! ووقَفوا ينظرون إليها فاغري الأفواهِ جاحِظي العيونِ، وقد أصابهم الذهولُ والرعبُ الشديدُ!

ولم ينتبهْ مرهوبٌ وأميرُ البحرِ ولا بقيةُ الرجالِ إلى ما كان يحدثُ حتى كادت السفينةُ السلطانيةُ تبتعدُ عن مدى طلقاتِ مدافعِ الأسطولِ! واستطاع الدَّفانُ أن يتغلَّبَ على ذهولِه، فاختطفَ سفوداً حامياً من أحدِ رجالِ المدفعيَّةِ، وكوى به ثُقْبِ الزنادِ، فانطلقت القنبلةُ في اتجاهِ السفينةِ وكادتْ تصيبُ مؤخِّرتَها. وأخذَ يصيحُ بالمدفعيِّين: «اضربوا! اضربوا»

وانطلقتْ المدافعُ يصُبُّ بعضُها النيرانَ على بعضٍ بشكلٍ عشوائيٍّ، وركَّابُ سفينةِ السلطانِ يتفرَّجون عليها، ويحمَدونَ الله على نجاتِهم منها...

وبقيتْ سفينةُ السلطانِ منطلقةً بسرعةِ الريحِ حتى ابتعدتْ عن مسرحِ العدوانِ، واختفت أضواؤها في الأفقِ

الجنوبي مثلَ شهابٍ مَرَّ في لَمح البصرِ!

وكان السلطانُ رياضيًا، شجاعًا، خبيرًا بشؤون البحر، فتماثلَ من الصدمةِ الأولَى بسرعةٍ، وخرج يبحثُ عن سرِّ سرعةِ السفينةِ. وفكَّر أنها لابدَّ أن تكون مدفوعة أو مجرورةً أو مرفوعةً على ظَهْرِ حوتٍ عظيمٍ، كما كانت تُحدِّثُ بذلك الأساطير.

ونظر من مؤخِّرةِ السفينة إلى البحرِ فلم يرَ إلا رغوةً بيضاءَ من أثرِ انسحابِ السفينةِ. وأسرع إلى مُقدِّمتِها وأطلَّ على الماءِ فاكتشف السِّرَّ!

وقبْل أن يلتفِتَ السلطانُ إلى الحرَّاسِ صاحَ فاتحٌ: «مولاي! لا خَوف عليكم! أنا خادمُكم فاتحٌ ابن خادِمكم الأمينِ إسماعيلَ الطبَّاخِ. ألتمسُ الأمانَ من مولاي والإذنَ في الصعود إليه لأشرحَ له ما يحدُثُ.»

وعرفه السلطان حالاً فأذنَ له في الصعودِ. وقبَّلَ فاتحٌ يَدَيِ السلطانِ وبكى فَرحًا، فطَمْأنه السلطانُ، وطلب منه أن يشرحَ له ما يحدُثُ. فحكى له باختصارٍ كبيرٍ قصَّةَ المؤامرةِ، وكيف

خَطَرَتْ ببالِ يونسَ البحريِّ فكرةُ إنقاذِ السلطانِ باستعمالِ حيتانه الأليفةِ. وأطلَّ السلطانُ على يونسَ، ولوَّحَ إليه بالتحيَّةِ، فانحنى هذا دونَ أن يترُكَ عنانَ الحيتانِ.

وطلب السلطانُ منهما الاستمرارَ بنفسِ السُّرعةِ حتى يَصلوا إلى مرفإِ العاصمةِ، ويُفوِّتوا الفرصةَ على المتآمرين. ونزل فاتحٌ إلى القاربِ. وأمَرَ السلطانُ الخدَمَ بإدلاءِ صحونِ الطعامِ وقواريرِ الشرابِ إليهما في القاربِ.

ثم أمرَ الملاحينَ بإنزالِ الأشْرعةِ حتى يُخفف العبء على الحيتان، وحتى تسيرَ السفينةُ بسرعةٍ أكبرَ، لإفشالِ أية خطَّةٍ احتياطيةٍ قد يكون وضَعها الخائن الغدّار «مرهوب الدفان».

ولكن الدفانَ كان مغروراً ومتأكداً من نجاحِ خطتِه لدرجةِ أنه لم يضعْ لها أيةَ خطَّةٍ احتياطيةٍ!

وسارتِ السفينةُ السلطانيةُ تشقُّ عُبابَ البحرِ خفيفة سريعةً وكأنها تنزَلقِ فوقَ الماءِ! وأُعجِبَ السلطانُ بسرعتِها التي لم تكن بَلَغَتْها سفينةٌ أو دابَّةٌ في ذلك العصرِ. ووقف في مقدمَتِها رافعًا ذراعيهِ في نَشوةٍ عارمةٍ يُسبِّحُ بحمدِ اللهِ،

والريح تتخلَّل لحيتَه وترفع سلهامه - عَبَاءَتَهُ - وراءه.

وأصيبَ الجميعُ بعدْوَى نشوةِ السلطانِ، فارتفعتْ الأصواتُ بالذِّكرِ، وتناولَ الموسيقيُّون آلاتِهم، وأخذوا يعزِفون المدائحَ والموشَّحاتِ. ولم تمضِ ساعةٌ على انطلاقِ السفينةِ حتى كانت قد قطعتْ المسافةَ التي كانت تقطعُها في يومٍ كاملٍ بسرعَتِها العاديَّةِ! ودخلتْ مرفأَ العاصمةِ مع طلوعِ الفجرِ.

* * *

وأُصيبَ «مرهوب» بخيبةِ أملٍ عظيمةٍ، أَعْقَبَها خوفٌ شديد من أن يكون السلطانُ قد عَلِمَ بالمؤامرةِ. وأخذ يفكِّرُ في إِلقاءِ اللَّومِ على أميرِ البحرِ واعتقالِه وتقديمِه للسلطانِ على أنه الخائن الغدَّار!

ولكن أميرَ البحرِ عباسَ الغزواني الذي كانَ يعرفُ الدفانَ حقَّ المعرفةِ قرأ أفكارَه بسرعةٍ، وقرَّر أن يتغدَّى به قبل أن يتعشَّى هو به! وكان الدفانُ قد انفردَ بأعوانه المقربينَ ليدرسَ معهم خطةَ اعتقالِ أميرِ البحرِ. وبينما هم يتآمرونَ إذ انفتحَ البابُ، ودخلَ عليهم أعوانُ أميرِ البحرِ مدجَّجينَ بالسِّلاحِ،

فاعتقلوا الدَّفانَ وأعوانَه، ووضَعوهم في القيودِ والأغلالِ، غيرَ عابئينَ بإغراءاتِ الدَّفان لهُمْ بالمالِ والترقياتِ، إنْ هم انحازوا إليه! لمْ يَدْرِ الدفانُ أنَّ تلك الفرقةَ من الرجالِ الغلاظِ الشِّدادِ كانت مكوَّنةً من الصُّمِّ والبُكمِ، ولا تفهمُ إلا لُغة الإشارةِ التي كان يُخاطِبُهم بها قائدُهم. فقدْ كان أميرُ البحرِ يعرفُ قُدرةَ الدَّفانِ على الإغراءِ والرَّشْوِ!

* * *

وفي العاصمةِ أفاق الناسُ على منظرِ سفينةِ السُّلطانِ في أبهى مظاهرِها راسيةً في مرفئهم، فهبُّوا لاستقبالِها والترحيبِ بالسلطانِ.

وكان السلطانُ قد أمر بإحضارِ يونسَ وفاتحَ ليشكرَهُما شخصيًّا، وأمامَ الناس، على إنقاذ حياتِه وحياةِ أهلِه وأعوانِه والمملكةِ من تسلُّط «مرهوبٍ الدفان»، وليتعرَّفَ إليهما ويعرِفَ منهما تفاصيلَ الخطَّة العجيبةِ.

واستغربَ السلطان غايةَ الاستغرابِ حين وقفَ أمامَه يونسُ البحري فوجدَه فتى صغيرَ السِّنِّ. وسأله:

– كيف خطرتْ لك هذه الفكرةُ العظيمةُ؟

– أوحتْ إليَّ بها صداقتي مع الحوتِ والدلافين.

وأعربَ له السلطانُ عن رغبتِه في تزويدِ جميعِ سفنِ أسطولِه بحيتانٍ تجرُّها، وحين لم يتحمَّسْ يونسُ للفكرةِ، سأله السلطانُ عن سببِ تحفُّظه، فقال:

– مع احترامي لرأي سيدي، فأنا لا أعتقِدُ أنه في مصلحته.

وتدخَّل الحاجبُ ليُسكِتَه ويُوبِّخهُ على الاعتِراضِ على رأي السلطانِ، ولكنَّ السلطانَ أمرَه بالصَّمتِ، وسأل الفتى:

– ولكن لماذا؟

– كيف كان سينجو مولايَ لو كانتْ سُفنُ الخَونَةِ لها نَفْسُ السُّرعةِ!؟ فزاد إعجابُ السلطانِ بذكاءِ الفتى ونباهَتِه، وقال له:

– ولدي، سيكونُ لك شأنٌ عظيمٌ! فابْقَ بجانبِنا...

وتذكَّر السلطانُ، وهو يدقِّقُ النظرَ في وجهِ الفتى، أنه كان شبيهًا جداً بقائدِ الألْفِ الذي أعدَمَهُ الدَّفانُ مع مَنْ أَعْدَمَ

بتهمةِ الخيانةِ العُظمَى والثورةِ ضدَّ السلطانِ. وتأكَّد له أن الدَّفان كان هو المدبِّر الحقيقيَّ للمآمرةِ، وأنه تخلَّص بها من جميعِ رجالِ السلطانِ الأوفياءِ المخلصينَ ليخلُوَ له الجوُّ لتدبيرِ المؤامرةِ الأخيرة التي كانت ستُمَكِّنه من العرشِ!

وهَمَّ بسؤالِ يونسَ عمَّن يكونُ أبوه، ولكنَّ الحاجبَ تقدَّم من السلطانِ وهَمَسَ في أُذنِه بشيءٍ، فقال السلطانُ لفاتحٍ: «خُذْ هذا الفتى معكَ يا فاتح. أريدُ أن أراكُما فَوْرَ عودتي.»

ونزل السلطانُ إلى زَورَقٍ كبيرٍ، حَمَلَه وحاشيتَه إلى البَرِّ. وهناك قادَ جنودَ الحامية بنفسِه لتفقُّد الأبراجِ وإعدادِ مدافعِها للرَّدِّ على أيِّ اعتداءٍ من سُفُنِ الأسطولِ المتمرِّدِ. وأَمَرَ بكتابةِ رسائلَ وإرسالِها مع الحَمامِ الزَّاجِلِ إلى جميعِ المرافئِ والحصونِ الشاطئيةِ، يُخبِرُها فيها بخيانةِ وزيرِ الحربِ «مرهوبٍ الدفان»، ومَنْعِه من الإرساءِ، بل وتحطيمِ مراكبِه إذا اقترب منها.

* * *

وبعد العَصْرِ وصلتْ إشاراتٌ ورسائل من البَرِّ والبحرِ تُخْبِرُ باقترابِ المراكبِ. وفي الأصيلِ، والشمسُ تقترِبُ من مَغيبِها،

ظهرتْ المراكبُ الحربيةُ السوداءُ. واصطفَّتْ قُبالةَ المرفأ بعيداً عن مدى طلقاتِ المدافع.

وخَرَجَ من بينِها مركبُ أمير البحر(عباس الغزواني) رافعًا الأعلامَ البيضاءَ علامةَ التماسِ الأمانِ. واقترب وَحْدَهُ من المرفأ، وأطلقَ في الجوِّ سبعَ حماماتٍ بيضاءَ تحملُ رسائل السلام والطاعةِ والولاءِ للسلطانِ.

واستقبله السلطانُ في الحالِ، فقبَّلَ يديه، وقال:

« مولايَ، الحمدُ للهِ على سلامتِكم من غدْرِ الماكرِ الخدَّاعِ، (مرهوبٍ الدَّفانِ!) فقد كادَ يُغررُ بنا، ويَجعلُنَا نضربُ سفينتَكم بالمدافعِ على أنها إِحدى سفُنِ العدوِّ! كان يتكلَّم باسمِكم، وكنَّا عازمين علي ضربِ السفينةِ، لولا حدوثِ المعجزةِ العظيمةِ التي جعلتها تَمرُقُ من أمامَنا كطائرٍ عظيمٍ! »

وجاء الجنود (بمرهوبٍ الدفان) معصوبَ العينين، مغلولَ اليدينِ إلى عُنقِه، يرسُفُ في القيودِ الثقيلةِ. فأمر السلطانُ بحمْله في قفَصٍ إلى القصرِ. وحين سمِع « مرهوب » صوتَ السلطانِ أخذ يتبَاكَى: « هاقْ هاقْ هاقْ! أنا مظلومٌ، يا مولاي! أنا بريء! »

* * *

وراح يمدُّ يدْيه نحوَ السلطانِ ويقبِّلهُا، دون فائدةٍ.

وعاد السلطانُ إلى قَصْرِه، وسار يونسُ وفاتحٌ في موكبِه الكبيرِ... ولمْ يكنْ يونسُ قد شاهدَ موكبًا سلطانيًا من قَبْلُ، فسار فوقَ بهيمته فاتحًا فَمَهُ مبهوراً بما يرى، وفاتحٌ يمازِحُه ويُنَكِّتُ عليه!

* * *

وكان أوَّلَ ما فَعَلَهُ السلطانُ إرسالَ المنادين إلى المدنِ والقُرى والأسواقِ لينادوا الناسَ: «أعبادَ اللهِ! لن تسمَعوا إلا خيراً. يقولُ لكم مولانا السلطان: من كانتْ له شكوى أو مَظْلَمَةٌ ضِدَّ وزيرِ الحربِ «مرهوبٍ الدَّفانِ»، فليَتَقَدَّمْ بها إلى السلطان! مَن أخَذَ منه الظالمُ الخائنُ أرضًا أو مالاً أو عَقارًا أو اعتدى عليه أو أهانَه أو قتلَ له قريبًا، فلْيَرْفَعْ شكواه إلى مولانا السلطان!»

ولم يصدِّقّ الناسُ في البداية، فقد ظَنُّوها حيلةً أخرى من حِيَلِ الثَّعلبِ (مرهوبٍ الدَّفانِ)، لِكَشْفِ أعدائِه والقضاءِ عليهم، والاستيلاء على مُمتلكاتِهم! كانتْ تلك عادتُه حين

يحتاجُ إلى تنميةِ ثروته الطائلةِ التي كانُ ينافسُ بها ثروةَ السلطانِ!

ولكنْ سُرعانَ ما شَاعَ خبرُ مؤامرتِه على السلطانِ نفسِه، ووقوعِه في قبضتِه أسيراً ذليلاً...

وأُخبِرَ السلطانُ بِبَدْءِ وصولِ وفودِ المتظلِّمين. وأَطلَّ من شرفةِ قصرِه ففوجِئ بحشودٍ هائلةٍ من رعيَّته تملأُ السَّاحةَ الواسعةَ أمامَ القصرِ، وتمتدُّ في كلِّ اتجاهٍ، وهي تهتِفُ بصوتٍ واحدٍ:

« يحيا السلطان! يسقط الدَّفان! الخائنَ الجبان! »

فحيَّاهم السلطانُ رافعًا ذراعَيه في الهواءِ، متأثِّرًا بولائِهم ووفائِهم. ونزل إلى مجلسِ وزرائِه وأعوانِه، وصاح فيهم غاضبًا: « لماذا لمْ تُخبروني بما كان يفعلُه الظالمُ الخائنُ (مرهوبٍ الدَّفانِ) برعيَّتي!؟ »

فأطرقوا جميعًا ولاذُوا بالصَّمت. وجَلْجَلَ صوتُ السلطانِ في أُبَّهاءِ القصرِ، دونَ أن يجدَ لسؤالِه جوابًا... ودار السلطان الغاضب بين أعوانِه ينكُتُ صدورَهم بِصَولَجَانِه، ويُكرِّرُ السؤالَ، فلا يزدادون إلا إطْباقًا كالمحار!

وفي غَمْرَةَ الصَّمتِ الكبيرِ، ارتفعَ صوتٌ مرتَعِشٌ: «أنا أقولُ لك!»

ونظرَ السلطانُ صَوْب مصدَرِه، فإذا هو شَيخٌ طاعِنٌ في السِّنِّ، يحمِلُ على رأسِه صُرَّةً. فسألَه السلطانُ: «مَنْ أنت؟ وما ذلك الذي تحمِلُه فوق رأسِك؟» فقال الشيخُ: «أنا أَحَدُ رعاياك. وهذا كَفَني. جِئتُ مُستعِدًّا للموتِ، فلمْ يَبقَ من عمري ما يستحقُّ حِرْصي عليه! وأريدُ أن أقولَ لك الحقيقةَ، وأموتُ شهيدًا!»

فوضع السلطان يَدَهُ على كَتِفِ الشَّيخِ، وقال له مُهدِّئًا: «لا بأس عليك أيها الشَّيخ! عليك أمانُ اللهِ، فَقُلْ ما عندك!»

فقال الشيخُ: «لم يُخبِرْك أعوانُك بجرائِم (مرهوبٍ الدَّفانِ) لأن الذين تجرؤوا وأخبروك كلُّهُم تحت التُّرابِ، أو يَتعفَّنون في غياهِبِ السِّجْنِ! لأنَّ كلَّ شكوى كانت تصلُك (بمرهوبٍ الدَّفانِ) كنتَ تأمُرُ بإحالَتِها عليه! ألمْ يَخطُرْ ببالِكَ ما سيفعلُه بصاحِبِها!؟ إنه أَعْماك وأَصَمَّك وشَلَّ إرادتَك، فلَمْ تَعُدْ ترى أو تسمعَ أو تتحرَّك إلا به! كان يختَلِقُ المؤامراتِ

الوهميةَ، ويمثِّلُ مسرحيات لإحباطها، فيضربُ عُصفورَين بحَجَرٍ! يتخلَّصُ من منافسيه على عَطْفِك وقُربك، ويزدادُ منك تقرُّبًا، فتزيدَه سلطةً وقوةً حتى لمْ يَبْقَ بيدِك شيءٌ! بقي اللقبُ والكرسيُّ، فكاد يأخذُهُما، لولا لُطْفُ الله!»

وهنا امْتَشَقَ الحاجبُ سيفَه، وصاح: «مولايَ! دعني أضربُ عُنُقَ هذا الشَّيخ الوَقِحِ!»

فأجابه السلطان: «أَعِدْ سيفك إلى غِمْدِه! هناك أعناقٌ كثيرةٌ كان يجبُ ضَرْبُها منذُ زمانٍ... وليس من بينِها عُنقُ هذا الشَّيخِ الصَّريحِ الشُّجاعِ!»

وأجالَ بصرَه في أعوانِه واحدًا واحدًا، فتفادَوا نظراتِه القاسيَةَ النفَّاذةَ وتوجَّه نحو الشيخِ، وأخذ الصرَّةَ من فوقِ رأسِه، وقَبَّلَ جبينَه، وقال له: «لن تحتاجَ إلى هذا الكفنِ الآن! فأنا أرى فيكَ قُوةً وجرأةً وذكاءً وغيْرَةً على بلدِك وقومك، تُؤهِّلُك للقِيامِ بمهمَّةٍ نبيلة. لذلك سأُعَيِّنُكَ رئيسًا لمجلسِ المظالمِ.»

وحَرَّك الشيخُ رأسَه رافضًا: «لا، يا سيدي! هذه مهمةٌ

عظيمــةٌ أولَى أن تُسندوها إلى رَجُلٍ أمين عـالمٍ في مـقـتَـبَلِ العمرِ؛ أما أنا فلَمْ يبقَ أمامي إلا الماءُ والقِبْلَةُ! »

فَشَكره السلطان بكلماتٍ مؤثِّرةٍ، وطلب منه أن يدعوَ له في صلواتِه، وأن يأتِيَـه متى رأى انحـرافًـا في مـسارِ البـلادِ، ويدخُلَ عليه بلا استئذانٍ! وصَرَفَه مُعززًا مكرَّمًا.

ثم نادى بيـونسَ، وأثْنَى على شـجـاعـتِـه وذكـائه أمـامَ الحـاضـرينَ، وسـمَّـاه أمـيراً، وقـال له: « علمتُ اليـومَ أنَّك ابنُ خـادمنا الوفي المخلصِ الشـهـيـدِ، قـائدِ الألْفِ « سـعـيـدِ المبـاركِ » الذي ذهب ضـحـيـةَ غـفْلتِنا وطمَعِ الخـائنِ الغـدَّارِ، « مـرهوب الدَّفـان »! وسـوفَ أُعـوِّضُكَ عن كلِّ مـا ضـاع منكَ بفـقـدان المرحـومِ والدِك. فـأنت منذ اليـومَ في مَحَلِّ ولدي. وسـيكونُ عليك أن تدخُلَ مـدرسـةَ الأمـراءِ لإتمامِ تعليـمِك. حـتى إذا بلغتَ سِنَّ الرُّشْدِ عيَّناك في منصِبِ والدِك. فماذا تقول؟ »

وفي مِـثْلِ هذه المواقفِ يكونُ الجـوابُ دائمًـا: « السَّـمْـعُ والطاعةُ لمولاي! » ولكنَّ الحضورَ فوجئوا بيونسَ يقولُ:

–هل كان لمنصبِ والدي علاقةٌ بالبحرِ؟

– لا ، والدُك كان قائدَ جيشٍ بَرِّيٍّ.

– إذن أنا أشكرُ مولاي على عظيمِ كَرَمِه، وألتمِسُ منه إعفائي منه. فأنا لا أُطيقُ البعدَ عن البحرِ، وعن أصدقائي الحيتانِ الذين كان لهم الفضلُ في إنقاذِ مولاي!

فضحك السلطانُ، ووضعَ يدَه على جبينه متذكِّرًا:

– كيف نسينا فضل تلك الحيتان الذكيَّة علينا!؟ شكرًا لكَ على تذكيرِنا! ستدخُلُ إذن المدرسةَ البحريةَ، وسأعيِّنُك في منصبٍ تبقى فيه قريبًا من حيتانِك وحبيبِك البحرِ! فهل لك طلبٌ آخرَ؟

– نعم، يا مولاي!

وامْتَعَضَ الحاجبُ من جُرأة الغلامِ، ولكنَّه لَمْ يجرُؤْ على التَّدخُّلِ. فقال السلطانُ:

– ما هو ؟

– أنْ يبقى معيَ رفيقي فاتحٌ. فقد استفدْتُ كثيرًا من تجاربِه في الأسطولِ لتنظيمِ عمليَّةِ الإنقاذِ.

فقال السلطانُ مستخِفًّا دَمَ الفتى:

ـ عيْنَّاهُ رفيقًا ملازمًا لك. هكذا يكون الوفَاءُ! فهنيئًا لكَ يا ولدي! هل بقي شيء؟

ـ نعم، يا مولاي!

فَضَحِكَ السلطانُ، وقال.

ـ مطالِبُك لا تنتهي! ولكنَّها معقولةٌ ومقبولةٌ! فماذا بقي؟

ـ هل يأذنُ لي والدي في تقبيلِ يديهِ؟

ـ هذا لا يحتاج إلى إذنٍ!

ونهضَ السلطانُ، وفتحَ له ذراعَيْه فدخَل الفتى بينهما، وضَمَّ السلطانَ إلى صدرِه بقوَّةٍ. وكبَّر الحاضرون، وهتفوا بحياةِ السلطانِ وولدِه الجديدِ السعيدِ.

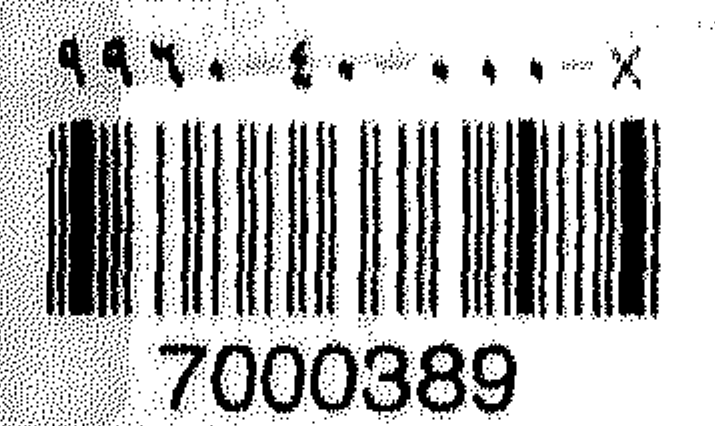


هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبد السلام البقالي ، الحاصل على جائزة « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم » .

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس ، وخياله الخصب ، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى ، ومن عالم إلى آخر . يقرب ... ث الماضي البعيد ، ويلقي الأضواء على عوال ... بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاض ... فالبقالي من أبرع كتاب القصص البوليسية ا ... ة الحديثة للشباب في العالم العربي .


٩٩٦٠-٤٠-٠٠٠-X
7000389

